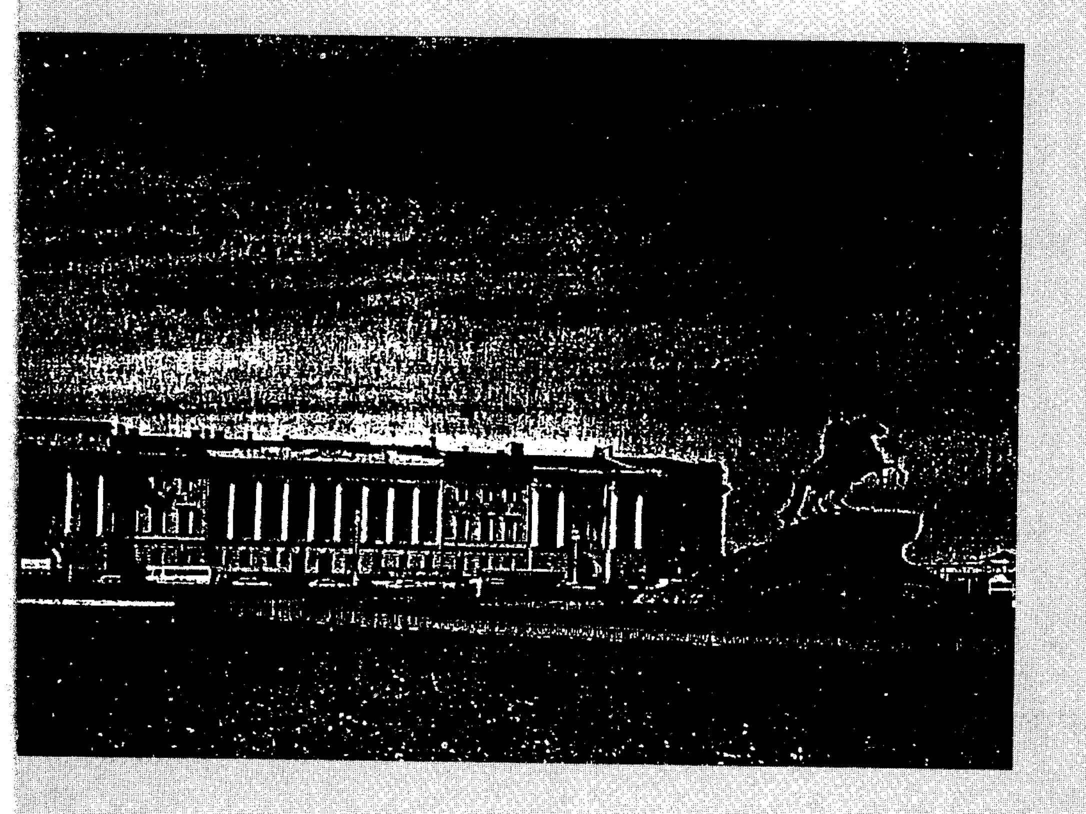
شبه الجزيرة العربية والخليج من خلال



بقلم البروفيسور نيكولاي إن. دياكوف

الوثائق والدوريات بسان بطرسبرج

(بداية القرن العشرين)

إن العام الأخير للقرن العشرين دون شك يمثل فترة مناسبة مثمرة لاستعراض الميول الرئيسية في التفاعل الدولي في أنحاء العالم المختلفة .

وعشية القرن الواحد والعشرين قد يكون من المهم إلقاء الضوء على بعض الوثائق من مقتنيات الأرشيفات الرئيسية في سان بطرسبرج عاصمة روسيا سابقاً . والتي لعبت دوراً ريادياً في سياستها الإمبريالية بعيداً عن حدودها وعلى طرق بعيدة عنها وعلى تقاطعات الطرق شرقاً وغرباً . وإلقاء الضوء على الصحف والمجلات التي يرجع تاريخها إلى بداية القرن العشرين .

"ذي نيو تايمز" التي كانت صحيفة محترمة وشائعة بين الناس في ذلك الوقت، كتبت تلخيصاً للشئون الدولية للقرن الماضي، بأن القرن التاسع عشر لم يغير خريطة أوروبا فحسب بل غيَّر خريطة العالم كله . وأثر في الحياة السياسية والاقتصادية في كافة المجتمعات والقارات في كل مكان . وبعد إنشاء قناة السويس في ١٨٦٩م انكمشت المسافات بين أوروبا والشرق بما فيه الهند وبلدان الشرق الأقصى . (ذي نيو تايمز - ١ يناير ١٩٠١م العدد ٨٩٢٥) .

إن وجهة النظر هذه، أي التركيز على أهمية أوروبا كمحور التطورات، كانت مقبولة في تلك الأيام رغم أنها قابلة للنقد الشديد في هذه الأيام . وعلى كل، فهذا التحليل لصحيفة روسية رائدة يعكس أصلاً مدى تطور آسيا وأفريقيا في القرن التاسع عشر إلى درجة الاندفاع إلى الحلبة السياسية والاقتصادية الدولية .

وأما بخصوص روسيا وسياستها نحو جيرانها في الشرق والجنوب، يجب علينا الاعتراف بأن هذا القرن العابر تميز بالتفاعل والتعاون منذ البداية بين روسيا ممثلة حضارة عميقة وواسعة في شمال القارة الأوروبية الآسيوية من جهة، والعالم العربي من جهة أخرى ممثلة مساحة واسعة للثقافات والتقاليد العريقة، وموطناً للأديان الرئيسية العالمية بما فيها الإسلام . وانتشرت تأثيرات هذه التقاليد عبر كافة القارات ووصلت إلى أقاليم روسيا قبل أكثر من ألف سنة .

وأصبح هذا القرن لروسيا والعرب على السواء مشهداً للتغييرات التاريخية في حياتهما السياسية والاجتماعية والثقافية . ومن البديهي اليوم بأن هذا القرن كان للعرب مرحلة ذات أهمية متزايدة من حيث السياسة الطبيعية والحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

وإذا أردنا الوصول إلى رؤية موضوعية متوازنة عن النمو الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي شهدته الجزيرة العربية والدول الخليجية على عتبة التحول من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين فلابد من مراجعة مصادر متنوعة ومنها التقارير الرسمية وشهود عيان وملاحظات الدبلوماسيين الروس والصحفيين وشهود متخصصين وضباط البحرية والعلماء الخ ... .

لقد شهد القرن التاسع عشر انتشاراً ملحوظاً للاستعمار الأوروبي عبر مساحات واسعة في آسيا وأفريقيا . وأدى هذا التوسع الاستعماري بدوره إلى وفرة المعلومات واختراق جدار الرأي العام الغربي عندما شرع العلماء الأوروبيون البارزون في أبحاث منتظمة في الحضارات والدراسات الشرقية .

وأن نخبة من العلماء الروس نالت شهرة عالمية في الدراسات العربية والإسلامية . ومنهم (دورن) و (فران) و (سنكووسكي) و (بريزن) و(جريجوريف) و (بارتولد) وغيرهم .

وكان إنجازهم في أبحاث الحضارة الإسلامية العربية رائعاً ومتنوعاً وعميقاً . وعالجت هذه الأبحاث موضوع الحضارة العربية الإسلامية في كافة مراحلها، من نشأتها إلى ملامحها البارزة في تطورها في القرن التاسع عشر .

وبتوسعة الاستعمار في بداية القرن العشرين كانت هناك حاجة لمعلومات وبيانات أكثر ولتحاليل مستحدثة عن الأوضاع السائدة في العتبة الجنوبية للإمبراطورية الروسية .

وكان هذا وراء جمع حجم كبير من التقارير للقناصل وقباطنة السفن والتحاليل العلمية والتوصيفية والبحوث والمقالات ذات الصلة بالحياة السياسية والاجتماعية لشعوب الشرق الأوسط وأنشطة القوى المتنافسة في تلك المنطقة . وتراكمت هذه الوثائق في أرشيفات المعاهد الرسمية المختلفة . ونشر معظمها في الدوريات الرئيسية للعاصمة الروسية في ذلك الحين، سان بطرسبرج .

ويستند هذا البحث إلى بعض المصادر المنتخبة بما فيها الوثائق الموجودة في الأرشيفات المركزية أي (الأرشيفات التاريخية الرسمية الروسية) والأرشيفات الرسمية للقوات البحرية الروسية، والدوريات الرئيسية للعاصمة ومنها الصحيفة "ذي نيو تايمز" مع ملحقها "الأسبوعية الملونة" و "ملخصات سان بطرسبرج" .

وسبق لكاتب هذا المقال معالجة الجوانب المختلفة لهذه الأبحاث ولو جزئياً في الندوة الدولية التي عقدت في المنامة في يناير عام ١٩٩٧م حول (العلاقات التاريخية بين روسيا ودول مجلس التعاون الخليجي) وكذلك في المؤتمر الدولي المنعقد في الرياض في يناير ١٩٩٩م حول (المملكة العربية السعودية : مائة عام) .

وفي هذا البحث الجديد يواصل الباحث معالجة الاتصالات المبدئية في مجالات السياسة والاقتصاد والثقافة بين روسـيا ودول شبه الجزيرة العربية في بداية القرن العشرين . ويتناول أسس التعامل بين روســيا والدول العربية الخليجية وجوانبها الدولية .

ولقد أدت السنوات الأولى في القرن العشرين إلى زرع بذور التنمية المستقلة في معظم الدول الإسلامية بما فيها دول الجزيرة العربية . وكانت هذه العملية متزامنة مع النشاطات الاستعمارية للدول الغربية بما فيها روسيا . لذلك يركز هذا البحث على

الأحداث الرئيسية التي اجتاحت الوطن العربي الواسع وانعكاساتها على روسيا . وتكون الأحداث ذات صبغة محلية وإقليمية على السواء . وأتناول أولاً الأحداث المحلية التي اجتذبت انتباه المراقبين الروس آنئذ .

ورغم اهتمام الإمبراطورية الروسية المستمر بالشئون العربية لم تنشئ صلات رسمية منتظمة بينها وبين سكان وحكام الجزيرة العربية حتى نهاية القرن التاسع عشر . وكان عدد المسلمين في روسيا في عام ١٨٩٧م ٩٪ من المجموع وهو ١٢٧ مليون نسمة .

ولاحظ بارتولد وهو عالم باهر ومتخصص في التاريخ الإسلامي لاحظ في عام ١٩٢٥م بأنه حتى نهاية القرن التاسع عشر لم ترسل روسيا أية بعثات أو حملات إلى المناطق الشرقية أو الداخلية للجزيرة العربية .

غير أن التوغل الألماني في الشرق الأوسط والتقدم في تنفيذ مشروع سكة حديد بغداد في الحدود الشمالية للجزيرة العربية أديا إلى تصعيد التوتر الدولي في السواحل العربية، وأقنعا روسيا بضرورة اتخاذ خطوات لتعزيز مواقعها في المنطقة، مستخدمة الوسائل السياسية والاقتصادية المختلفة، والقيام بدور أكثر واقعية في المنافسة للسيطرة على الطرق التجارية الدولية حول الجزيرة العربية .

وحتى أواخر القرن التاسع عشر، كانت المصادر الرئيسية للمعلومات عن الشئون العربية لدى الحكومة الروسية تقتصر على التقارير الدبلوماسية من القناصل والضباط من الأقاليم المجاورة للإمبراطورية العثمانية وإيران، والتقارير من الجهات الرسمية للخارجية والزوار العاديين .

وعلى كل، كانت في متناول يد الوزارات في سان بطرسبرج عامة معلومات كافية عن الخليج والجزيرة العربية، وهي المطلوبة لتسيير السياسات الخارجية والتجارة في المنطقة .

ومن الروس الذين شاهدوا الأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة في الدول العربية الخليجية، أولاً بأول، كانوا القباطنة وقادة السفن الحربية والتجارية التي ترددت السواحل العربية في العقد الأخير للقرن التاسع عشر . وجدير بالذكر بأن أول زيارة غير منظمة لباخرة روسية "نزنى نوفوجورود" لميناء مسقط كانت في سبتمبر ١٨٩٣م . بعد

حوالي ست سنوات، أي في فبراير – مارس ١٨٩٩م، قامت السفينة الحربية "غلياك" بزيارة كل من بندر عباس وبوشهر ومحمرة والبصرة والكويت .

مصدر مهم آخر عن الأحداث الجارية داخل الجزيرة العربية وحولها ذات الأبعاد الدولية، كان "تقارير الوكلاء السياسيين والعسكريين" وتقارير الممثلين الذين ساهموا في التعارف والتقارب بين روسيا والدول العربية .

"عبد العزيز دولتشن" كان روسياً مسلماً شهيراً وسائحاً وضابطاً في المخابرات وأوفدته حكومته في عام ١٨٩٨م إلى الحجاز ليدرس المسائل والمشاكل التي واجهها الحجاج الروس إلى الأماكن المقدسة أثناء وجودهم في الجزيرة العربية .

وبعد عام، أي في ١٨٩٩م، نشر تقريره عن مهمته في الجزيرة العربية، في سان بطرسبرج من قِبل المقر الرئيسي للإمبراطورية الروسية . وأصبح هذا التقرير وثيقة مهمة ومعتمدة في المعلومات عن الجزيرة العربية وخلفيتها .

وسائح روسي آخر يجدر ذكره هنا هو محامٍ وصحفي ووكيل رسمي "إس. إن. سيرومياتنيكوف" الذي كان رجلاً مقبولاً في سانٍ بطرسبرج بسبب مقالاته وبحوثه ومحاضراته عن التاريخ وأنماط الحياة اليومية في البلدان المختلفة في آسيا والشرق الأوسط . في بدية عام ١٩٠٠م أوفدته حكومته ليمهد الطريق للتعاون مع الدول الخليجية مستقبلاً ويتحرى إمكانية التوغل التجاري والمالي الروسي إلى المنطقة .

وأعد سيرومياتنيكوف تقريراً كاملاً عقب عودته إلى روسيا وبعد عام، أي في نوفمبر ١٩٠١م، لأول مرة، ألقى محاضرة عن انطباعاته عن سفره إلى الخليج بحراً تحت عنوان : "أهمية الخليج والكويت الدولية" أمام أعضاء "جمعية أنصار المعلومات العسكرية" في سان بطرسبرج .

وفي الحقيقة تناولت تلك المحاضرة النقاط الرئيسية التي تضمنها كتابه "صور من الخليج" الذي صدر في سان بطرسبرج في ١٩٠٧م .

وقدم سيرومياتنيكوف في بداية محاضرته أمام جمعية المعلومات العسكرية في سان بطرسبرج وصفاً عاماً للوضع الجيوسياسي لمنطقة الخليج . وقال بأنه في حالة تنفيذ مشروع سكة حديد بغداد وتمديدها إلى الكويت، تزداد أهمية هذه المنطقة نظراً لأنها تقع

على تقاطع الطرق بين أوروبا والشرق . كما تزداد المؤامرات السياسية والتوتر بين القوى الأوروبية الموجودة في الخليج منذ بداية القرن العشرين .

وعرض المحاضر أمام مستمعيه مجموعة كبيرة من الخرائط التي كان قد أعدها من خلال أسفاره وجولاته الميدانية . وفي رأي الصحفي الرسمي لجمعية المعلومات العسكرية كانت تلك الخرائط مشوقة وقيِّمة للغاية .

وشمل البحث معلومات جغرافية وإحصائية عن المنطقة و وصفاً مفصلاً عن خليج عمان وخط الساحل والجزر وأعماق ومساحات الخلجان والموانئ والقنوات المائية .

والبيانات المنتخبة الآتية عن بعض الموانئ العربية والمدن الساحلية والقرى التي قدمها سيروميانتيكوف، تثير إعجاب القارئ المعاصر .

أولاً : وصف لمسقط عاصمة عمان : وهي بلد مترامي الأطراف في شرق الجزيرة العربية ومساحته أكثر من ٨١,٠٠٠ ميل مربع وعدد سكانها في العام ١٩٠٠م حوالي مليون ونصف المليون نسمة . وكان عدد السكان في مسقط حوالي ٣٠,٠٠٠ نسمة . وكان إجمالي المبيعات فيها بقيمة ٥ ملايين روبل في ١٩٠١-١٩٠٢م والواردات بقيمة ٣,٣٦٠,٠٠٠ روبل والصادرات بقيمة ١,٣٤٠,٠٠٠ روبل والإيراد من الجمرك ٢٠٠,٠٠٠ روبل .

المنامة : عاصمة البحرين وميناء وعدد سكانها أكثر من ٥٠,٠٠٠ نسمة (١٩٠١م) وإجمالي المبيعات السنوية بقيمة حوالي ٩ ملايين روبل في ١٨٩٥-١٨٩٦م وإجمالي الواردات بقيمة ٤,٢٥٨,٨٠٠ روبل والتصدير بقيمة ٤,٤٩٤,٠٠٠ روبل .

الكويت : هي ميناء هام وعاصمة وعدد سكانها حوالي ٨٠,٠٠٠ نسمة . وتبلغ التجارة الخارجية في ميناء الكويت مليوني روبل (الإيراد والتصدير متساويان) . ولها ٢٠٠ سفينة وسعتها تتراوح بين ٢٠ و٣٠٠ طن .

وذكر الباحث عدة موانئ صغيرة وقرىً أخرى واقعة على السواحل الخليجية ومنها القطيف والعقير والبدع وقطر والفاو والبصرة الخ ... وأورد بصفة عامة أهمية مواقعها من الناحية السياسية والاقتصادية والعسكرية للمنطقة كلها .

وكان جزء هام من المحاضرة عبارة عن وصف لبعض الموانئ الأخرى الواقعة على الساحل الشرقي مثل المحمرة وبندر عباس الخ ... .

وفي إحدى المحاضرات قدم الباحث مجموعة من رسومه وصناعات عربية تقليدية كالبنادق والملابس والفخار والصحون الخ ... .

تقارير القناصل :

شكلت هذه التقارير مصدراً ثرياً وموثوقاً به للمعلومات المعاصرة عن أنماط الحياة السائدة حتى في البلدان التي لم تكن على علاقات دبلوماسية مع روسيا رسمياً . ولمدة طويلة كان المصدر الوحيد للمعلومات هو القنصلية الروسية العامة في ميناء بوشهر الإيراني وهي التي زودت الحكومة في سان بطرسبرج بالتقارير المفصلة عن التطورات السياسية والعسكرية والنمو الاجتماعي والاقتصادي في الدول العربية الخليجية .

ولدى معظم الحكام العرب، في السنوات الأولى من القرن العشرين، كان القنصل العام الروسي في بوشهر "جي. في. أوفسينكو" همزة وصل بينهم وبين "قيصر الشمال" في سان بطرسبرج . وكانت صلات الصداقة الحميمة قائمة بينهم وبين هذا الدبلوماسي منذ أمد طويل . ونزل عليهم ضيفاً أثناء زيارته لعواصمهم .

وبصفته موظفاً رسمياً كان أوفسينكو أول من استعرض الجوانب المختلفة لزيارات الروس للسواحل الخليجية ومنهم السياح والتجار والملاحون والعلماء في أوائل القرن التاسع عشر .

وقدم أوفسينكو تقريراً مفصلاً شاملاً لوزارة الخارجية الروسية عن ترويج تجارة السكر الدولية في منطقة الخليج في الفترة من ١٨٩٥ إلى ١٩٠٠م .

وتناول أحد التقارير مواصفات كل ميناء رئيسي في الخليج وميزات أنشطتها التجارية الرئيسية .

وأكد أوفسينكو أن معظم الموانئ العربية الخليجية كالبصرة والكويت والمنامة ومسقط والشارقة ورأس الخيمة وأبوظبي ودبي كانت ملائمة للبواخر الحديثة الثقيلة .

وكان لكل ميناء اتصالات تجارية وخدمات خاصة به . وكانت فيه مساحات تجارية وتسويقية منتظمة وازدهرت هذه الموانئ بتبادل البضائع التجارية .

ورأى أوفسينكو أن تجارة السكر مثل السلع التجارية الأخرى كانت لها إمكانات مرموقة وهي في تزايد مستمر في المنطقة . وبلغ حجمها في ١٩٠٠م ٣,٨٣١,٧٠٧ روبل .

ثم عرض القنصل الروسي وصفاً مفصلاً مدعماً بالجداول والأشكال ليشرح الاتجاهات الرئيسية في تجارة السكر الدولية العابرة عن طريق الموانئ الرئيسية في الخليج . وذكر القنصل أنواع السكر الرائجة ومنها(أبو فنجان) و (أبو سرة) بأوزان ٢ كيلوجرام والمستوردة من فرنسا، ومسحوق السكر البلور من النمسا الخ ... وكان الاستهلاك المحلي مكوناً من هذه الأنواع من السكر .

وكان حجم تجارة السكر في الموانئ الرئيسية الخليجية للسنوات من ١٨٩٧ إلى ١٩٠٠م في مسقط ١٢١,٢١٠ روبل، و٩٨,١٧٨روبل في الموانئ العمانية الأخرى، و ٥١,٢٤٧ روبل في البحرين .

ومن مسقط يتم توزيع السكر المستورد إلى القرى والمدن في المنطقة المجاورة كلها .

والموانئ والقرى الواقعة على الشريط الساحلي الضيق الممتد من رأس مسندم إلى غرب قطر، حسب قول أوفسينكو، كانت منطقة هامة من حيث استهلاك السكر المستورد الذي جاء من ميناء بومباي على متن سفن الشركة البريطانية الإيرانية عن طريق لنجة، ومن لنجة ينقل السكر إلى عمان على ظهر القوارب المحلية .

وكانت القيمة الإجمالية للسكر المستورد من بومباي إلى الساحل العماني في عام ١٩٠٠م ٨٢,٨٠٠ روبل . ولمسقط ١١٨,٨٤٦ روبل .

وبلغت قيمة السكر المستورد إلى البحرين في ١٩٠٠م ٥٩,٧٨٦ روبل . وينقل السكر من البحرين إلى كل من قطر والموانئ الصغيرة في الاحساء تحت إشراف الأتراك وحتى إلى الكويت .

والتعقيدات السياسية حول الكويت سببت انخفاضاً ملحوظا في إيراد السكر الذي تم تحويل نقله عن طريق الموانئ المجاورة كالبصرة والمنامة والمحمرة حسب قول

أوفسينكو . وفي هذه الفترة كانت كمية السكر المستورد إلى الكويت ٤٠٠ كيس من القطع و٢٠٠٠ كيس من الحبيبات .

ودون شك كانت فرنسا في طليعة مصدري السكر إلى الخليج في بداية القرن العشرين وبلغت صادراتها ٩٩٦,٠٢٠ روبل . وكانت الهند نقطة التجارة المرورية وقدرها ٤٥٩,٦٦٨ روبل .

ثم قام أوفسينكو بتقييم الموقف بجدية تامة بشأن إمكان تصدير السكر من روسيا إلى الخليج .

وحتى عام ١٩٠١م لم يكن يعرف أحد في الخليج عن مصدِّري السكر في روسيا . وفي ذلك العام وصلت باخرة الشحن (كورنيلوف) إلى ميناء بوشهر الإيراني وعلى متنها ٩٥٠ كيساً من السكر الروسي لبيعه في إيران .

وذكر أوفسينكو مبادرة ممثل للجنة بورصة كييف "إم. سومكيفيش" في زيارته لبوشهر وهو أول روسي زار بوشهر للاطلاع على الأوضاع السائدة في أسواق السكر وتقييم إمكانية تصدير السكر الروسي إلى الخليج .

ولاحظ أوفسينكو في تقريره لسان بطرسبرج بأنه بتشغيل خطوط ملاحية جديدة من ميناء أوديسا في جنوب روسيا يمكن التغلب على معظم المشاكل التي تواجه التبادل التجاري مع الخليج . وكما ذكر آنفاً تلقي الوثيقة الضوء على حقل مهم في العلاقات التجارية بين روسيا ودول الخليج في بداية القرن العشرين . كما تشير إلى مجهودات الحكومة الروسية لتوسيع وتنويع اتصالاتها مع الخليج الذي كان يكتسب أهمية متزايدة على المستوى الدولي .

إن تقارير القنصل عالجت كافة مجالات العلاقات الخارجية للدول الخليجية وقدمت بيانات ومعلومات حديثة للهيئات الحكومية العليا عن الجوانب المختلفة للخليج منها الارتقاء السياسي والحروب والاقتصاد والتجارة والثقافة والتعليم .

ووثيقة مشوقة أخرى ضمن الطبعة الرسمية لمجموعة التقارير من القناصل الروس تعالج موضوع التربية والتعليم في الإمبراطورية العثمانية في ولاياتها العربية كالعراق وسوريا وفلسطين واليمن وطرابلس . (٤ . تقرير القنصل الروسي — أ. بترابييف)

الدوريات الروسية :

وهي مصدر ثري آخر للمعلومات عن الأوضاع الخليجية في بداية القرن العشرين لجمهور القراء على نطاق أوسع .

والمواضيع الرئيسية في السنتين الأوليين للقرن كانت على العموم متعلقة بمشروع سكة حديد بغداد وأزمة الكويت ومراحل الصراع في نجد بين السعوديين والرشيديين والتعاون الدولي المتقطع حول السواحل الخليجية .

سكة حديد بغداد :

نشر كاريكاتير نموذجي في صحيفة "ذي نيو تايمز" (٥يونيو ١٩٠١م) وفيه قطار (سكة حديد بغداد) لفيفة حول شجرة الجنة يغري أرض الميزوبوتاميا بكلمات تحته : (المغرية الجديدة في أرض الفردوس القديم) .

ونشرت فقرات قصيرة عديدة حول هذا الموضوع في صحيفة "سان بطرسبرجكية فيدوموستي" في ١٩٠٠ – ١٩٠٢م . كما نشرت تفاسير مفصلة من رئيس التحرير حول الموقف الروسي من سكة حديد بغداد . ونقلت الصحيفة إلى المستثمرين الروس قصد الحكومة التركية لبيع ٤٠٪ من الأسهم إلى فرنسا وبلجيكا و ٤٠٪ إلى أصحاب الأموال الروس والمؤسسات المالية الخارجية الأخرى التي كانت لديها خبرة طويلة في التجارة في تركيا .

وصحيفة أخرى من سان بطرسبرج (الفاينانشيال هيرالد) أعلنت أن الحكومة الروسية لم ترغب مباشرة في الاشتراك في هذا المشروع لكنها أخبرت مستثمريها عن حقهم المشروع في مساهمتهم في امتياز سكة الحديد .

"امتداداً من البوسفور عن طريق آسيا الوسطى إلى الخليج فإن السكة الحديدية هذه تتمتع بأهمية لدى عامة الناس كطريق من أوروبا إلى الهند حسبما ورد في الصحيفة ."

"أولاً، أن السكة الحديدية هذه تحمل أهمية لألمانيا لأن المشروع يجذب جزءاً كبيراً من آسيا الوسطى إلى منطقة نفوذها . ويفتح أقرب طريق إلى سوق جديدة رخيصة للحبوب الغذائية مما يمثل من جانبه تحدياً لروسيا والولايات المتحدة كمصدري الحبوب الغذائية التقليدية ."

واستطرد الباحث قائلاً : "إن المصلحتين الأساسيتين كالمذكور آنفاً لم تخدمها سكة حديد بغداد . والطريق الأقصر والطبيعي من أوروبا إلى الهند والشرق الأقصى يمر من الشرق الأوسط عن طريق أورنبرج وطشقند وكشكة، وسبق لنا أن انفقنا مبالغ ضخمة ومجهوداً كبيراً عليه ." (٧ يناير ١٩٠٢م)

الكويت :

وتعليقاً على ما ورد في الدوريات الإنجليزية والألمانية، كتبت الجرائد في سان بطرسبرج عن أهمية الكويت الجيو-سياسية وقالت بأنها تلعب دور الإسكندرية للخليج في المنطقة .

وتناسب الكويت سفناً كبيرة وتحميها من الرياح الشديدة وهي مرساة رائعة وتستوعب أسطولاً على الأقل .

"وعدد سكانها يزيد على ٢٠,٠٠٠ نسمة وهي تقع على مفترق الطرق من البصرة إلى المناطق الداخلية للجزيرة العربية . وتشكل ميناءً دولياً في الخليج ."

(جريدة "سانبطرسبرجكي فيدوموستي" ٨ فبراير ١٩٠١م)

والجرائد الرئيسية في سان بطرسبرج اهتمت اهتماماً خاصاً بالمواقف الإنجليزية تجاه تطور الأحداث في المنطقة . لأن الإنجليز، من وجهة نظرها، راقبوا التطورات في الكويت وحولها عن كثب . وكان المقيم الإنجليزي في بوشهر قد كتب لوزارة الخارجية

في لندن عن ضرورة القيام بدراسة جادة عن المناطق المختلفة خاصة نجد حسبما كتبته جريدة "فندوموستيا" (١٨ فبراير ١٩٠١م) .

وكانت نفس الجريدة تراقب التطورات في المجابهات بين الشيخ مبارك حاكم الكويت ومنافسه من نجد ابن رشيد . وكان التدخل التركي في هذا النزاع، حسب قول الجريدة، من الأسباب الرئيسية لبروز الأزمة على حدود الكويت، ونتيجة السياسة التركية الهادفة إلى إسقاط سلالة شمر . (٣١ مارس ١٩٠١م)

وأنذر مراسل الجريدة قائلاً : "إن أزمة الكويت ستصبح معقدة أكثر قريباً . وقد سمحت لبريطانيا بحرية التصرف في الحفاظ على مراقبتها على الكويت ولو من غير حق لتجنب تعقيدات أكثر ."

"إن هذه الأحداث قد تجعل الأمور أكثر تعقيداً باقتراب النزاع النهائي في المنطقة" (٢٤ ديسمبر ١٩٠١م)

مسقط :

ونشر مراسل الصحيفة في دول الخليج سلسلة من التقارير في الفترة ١٩٠١م — ١٩٠٢م عن الوضع السياسي بشكل عام والشئون الخارجية والحياة الاجتماعية الثقافية في عمان .

ومن بين المسائل السياسية في تلك الفترة كان النزاع بين سلطان سعيد فيصل، سلطان مسقط وجيرانه في صور وأشكال التدخل الخارجي فيه . وجاء وصفها في الجريدة .

وبريطانيا، في محاولة لتوطيد دعائمها في المنطقة، حسب الجرائد الروسية كثيرة التداول، شجعت ازدياد التوتر السياسي والعسكري في عمان وفي نفس الوقت قامت بالتغلغل الديني بابتعاث الأساقفة والمبشرين من الهند إلى مسقط .

وورد تقرير في الجريدة المذكورة المؤرخة في ١١ مارس ١٩٠١م عن زيارة أسقف إنجليزي من لاهور إلى مسقط وعقد أول مجلس صلاة على ظهر سفينة للقوات البحرية

البريطانية راسية في خليج مسقط . وفي وقت لاحق زار الأسقف مقبرة أمريكية في عمان تابعة للكنيسة الأمريكية الإصلاحية .

ورغم اهتمام الوكلاء الإنجليز بالوضع في عمان إلا أنه لم يكن مجدياً في معالجة الأوضاع الاجتماعية والصحية السيئة للغاية السائدة بين السكان المحليين .

وأعرب المراسل الروسي عن مخاوفه من إمكان نقل عدوى الطاعون الآسيوي من الهند إلى موانئ أوروبا وروسيا عن طريق عمان .

"لقد أدرك سلطان مسقط أهمية تنفيذ لوائح الحجر الصحي أحسن من البحارة الغربيين الذين لم يرغبوا في تعرضهم للحجر الصحي وإجراءات التطهير وحتى الفحص الطبي الروتيني ." (الجريدة)

"السيد فيصل اشتكى كثيراً من خرق الأعراف الدولية من قبل قباطنة السفن التجارية الإنجليزية . وبالنسبة إلى ضباط القوات البحرية فإنهم يعتبرون أنفسهم فوق القانون، وذهب الوكيل البريطاني في مسقط، الملازم كوكس لحد تقديم نصيحة للسلطان ليلزم الصمت بهذا الشأن" (٤ فبراير ١٩٠١م) .

وجاء ذكر حدث آخر من مراسل الجريدة "ذي نيو تايمز" ذي صلة بالعلاقات الروسية الخليجية :

ذات يوم في ديسمبر عصراً وصلت سفينة جديدة روسية ذات ٤ مداخن وحاملة الذخائر واسمها "فارياغ" إلى خليج مسقط في طريقها من عدن إلى الصين . وقائد فارياغ القبطان "بي. أو. بير" كان أول ممثل رسمي روسي يزور ميناء مسقط في بداية القرن العشرين .

وكما لاحظ زميلنا أفيم رضوان في كتابه، كان الغرض الأساسي من زيارة فارياغ إلى الموانئ الخليجية في نوفمبر — ديسمبر ١٩٠١م هو الاطلاع على الأوضاع السائدة هناك .

وكانت صحيفة "نوفوي فريميا" الجريدة الروسية الوحيدة التي تابعت زيارة فارياغ التاريخية المهمة التي تمت في جو من السرية . ولم يكن معظم ضباط فارياغ على علم بالطريق الذي كان عليها أن تسلكه .

والقبطان بير وضباطه بمرافقة نائب القنصل الفرنسي تلقوا ترحيباً حاراً من السلطان السيد فيصل بن تركي . وجاءت زيارة جوابية من السلطان بمرافقة كل من أخيه وابنه ورئيس وزرائه وبعض الموظفين الكبار . ولاحظت الجريدة بأن السلطان ومرافقيه تأثروا تأثيراً عميقاً بالطراد الروسي . وطلب السيد فيصل من كابتن بير أن ينقل "لقيصر الشمال" وافر التقدير والاحترام .

وكانت هذه الزيارة تحمل في طياتها أهمية كبيرة لنائب القنصل والضباط الفرنسيين الرسميين في مسقط، الذين أعلنوا أن فارياغ كانت رمزاً للتحالف المتزايد بين روسيا وفرنسا عسكرياً وسياسياً خاصة في منظور شعوب الدول الخليجية وحكامها .

(١٢ يناير ١٩٠٢م)

وفتحت زيارة فارياغ في ديسمبر ١٩٠١م آفاقاً جديدة لإقامة اتصالات هامة بين الممثلين الروس وحكام مسقط .

وتمت زيارة أخرى بعد عدة شهور عندما رحب السلطان السيد فيصل في يوليو ١٩٠٢م بالعالم الروسي من جامعة موسكو، الأستاذ "إن. في. بوجويا فلينسكي" . وقد أعد الأستاذ تقريراً مفصلاً عن زيارته لمسقط وأبحاثه الميدانية التي قام بها في كل من مسقط والكويت والمنامة والأماكن المهمة الأخرى في الخليج .

وتقرير مشوق آخر يتعلق بزيارة الكابتن "ساريشيف"، قائد الطراد "بورايين" الذي زار الموانئ الخليجية في يناير — مارس ١٩٠٣م .

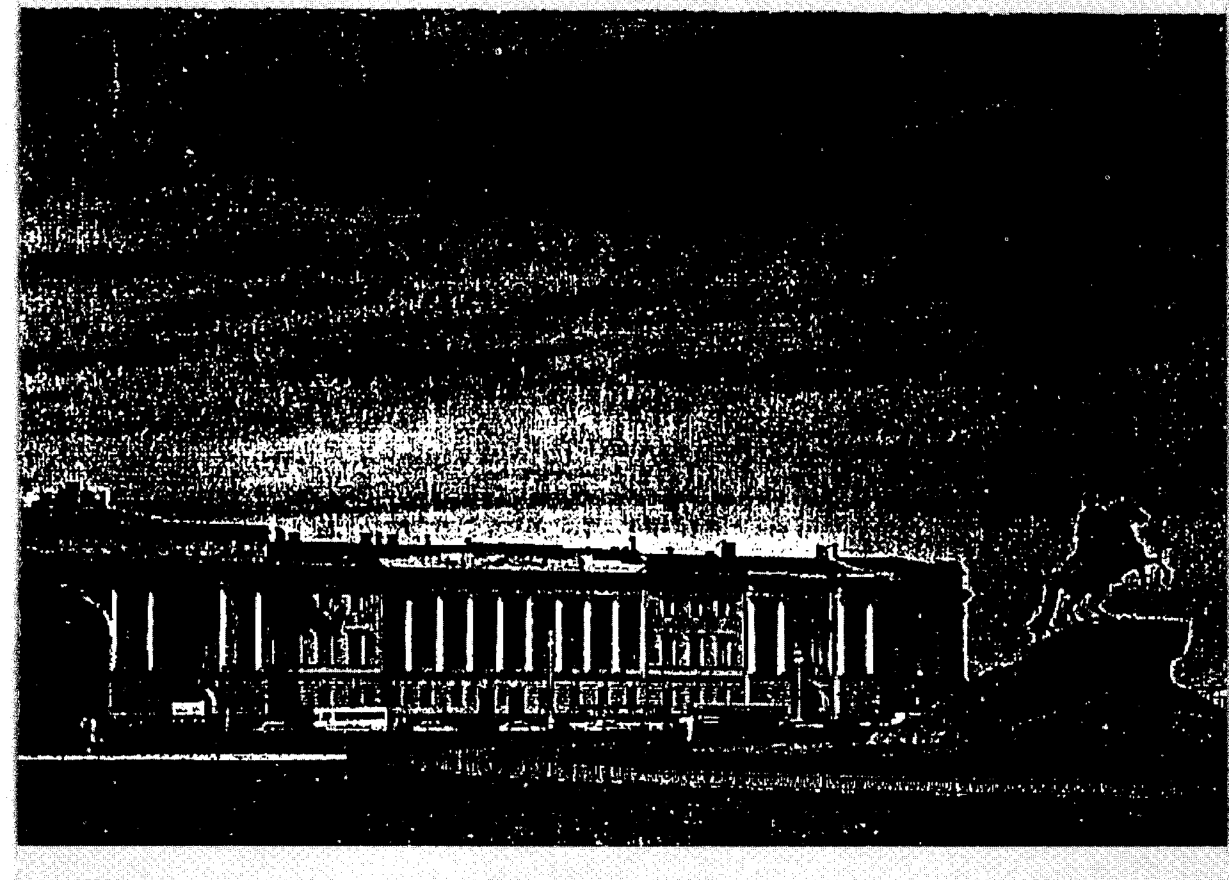
وجاء ذكر زيارات الروس إلى الدول العربية الخليجية بالتفصيل في المطبوعات والأبحاث التي قدمها الباحثون حديثاً (راجع ٦ و٨ و١٢ الخ ...."

وإن مجموعة الوثائق والدوريات من مقتنيات الأرشيفات والمكتبات في سان بطرسبرج التي ذكرناها في هذا البحث، تلقي الضوء على بعض الاتجاهات في العلاقات بين روسيا والدول العربية الخليجية في بداية القرن العشرين .

والعلاقات الثنائية التي دامت لمدة قرن وربطت منطقة ثقافية واسعة في شمال القارة الأوروبية الأسيوية من جهة وأخرى في الشرق الأوسط التي شهدت أهمية جيو سياسية متزايدة، تعرضت لنقاط التحول العديدة وبعضها واعدة .

وتحليل أدق وأعمق لنتائج هذه الصلات والاتصالات التي جرت عبر القرن الأخير، في رأينا، يكون لها مردود على التعاون بين روسيا والعالم العربي في القرن الواحد العشرين .

البروفيسور نيكولاي إن. دياكوف
رئيس قسم تاريخ الشرق الأوسط
جامعة سان بطرسبرج



مبنى الأرشيف الرسمي لجمهورية روسيا الاتحادية في سان بطرسبرج.

Selected Bibliography:

1. Bartold V. V, The History of Oriental Studies in Europe and in Russia. In: Coll. Works. Vol. IX. Moscow, 1977. (In Russian).
2. Bodyanski W.L., The Eastern Arabia. History, Geography, Population, Economy. Moscow, 1986. (In Russian).
3. Bondarewski G.L., The British Policy and International Relations in Persian Gulf (19th-Early 20th CC.) Moscow, 1968. (1n Russian).
4. Dantzig B.M., The Near East in Russian Science and Literature. Moscow, 1973.
5. Davletshin A.A. A Report of Staff-Captain Davletshin on His Mission to Hejaz. St. Petersburg, 1 899.
6. Dyakov N.N. Arabia at the Turn of a New Age: Documents From the: Historical Archives of St. Petersburg. Conference on the Kingdom of Saudi Arabia: 100 Years. Ryadh. 1999.
7. Dyakov N.N. Russia and the Arab East: Problems and Prospects of a Civilization Interaction. In: Russia and the Arab World. Scientific and Cultural Relations. St. Petersburg, 1999.
8. Goriatchkine G. V. A Travel of N.V. Bogoyavlenski in the Arab States of the Gulf in 1902. Moscow, 1999. (In Russian).
9. Klemm. Report of Consul General of Russia in Bombay. 20.09.1901. S.A.R.N. File 417,1,2032. N041. (In Russian).
10. Lutskiy V.B. Modem History of the Arab Countries. Moscow, 1965. (In Russian).

11. Ovseenko G. V. A Sugar Import to the Ports of the Persian Gulf. In: «Sbornik Konsulskikh Donesenjy» («The Collectjon of Consul Reports»). Vol. I. St. Petersburg, 1903.

12. Rezvan E.A. Russian Ships in the Gulf. 1899-1903. Arab. Edition. Moscow, 1990. .English Edition. London, 1993.

13. Sarychev. Report of Commander of the 2nd Range Cruiser «Boyarin". March, 1903. S:A.R.N. File 417,1,2613. (In Russian).

14. Statistics on Import to the Ports of the Gulf. 19809-1913. R.S.H.A. F.23,11,89. P.82-306.

15. Syromyatnikov S.N. On the World-wide Significance of the Gulf and Kuwait. In: «Vestnik Obschestva Revniteley Voennykh Znaniy», N048. St. Petersburg, 15.01.1902. (In Russian).

16. Vassiliev AM History of Saudi Arabia. Moscow, 1982. (In Russian).

17. Vassiliev AM. Russia in the Middle East: From Messianism to Pragmatism. Moscow, 1993. (In Russian).

Periodicals:

1. «Novoye yremya». («The New Time»). St. Petersburg. 1900,1901.

2. «Novoye Vremya».Illustrated Supplement. St. Petersburg. 1901.

3. «Sanktpeterburgskiye Vedomosti» («The St. Petersburg Summaries»). 1900 - 1902. .

4. Sbornik konsulskikh doneseniy. (The Collection of Consul Reports). St. Petersburg. 1903.

5. Rossiya i Aziya. (Russia and Asia). Kiev, 1902-1904.

6. Vestnik Obschestva Revniteley Voennykh Znaniy. («The Herald of the Military Knowledge Association»). St. Petersburg. 1902.

7. Al-Watheekah. The Historical Documents Center of Bahrain. No. 32. July 1997.

Archives and Documentation:

1. The State Archives of the Russian Navy (S.A.R.N.) St. Petersburg.

2. The Russian State Historical Archives (R.S.H.A.) St. Petersburg.

3. The Archives of the Russian Geographical Society (A.R.G.S.) St. Petersburg.